تتقدّم إلى الكاونتر لتسلّم جوازَ سفرك يشير الشرطيُّ إلى مكانٍ عشوائيّ في الصالة «اجلسْ إلى حين سماع اسمك.» تبتعد عنه، وتلُوح في ذهنكَ جملةٌ تدوّنها على هاتفك: «لو كنتَ تحبّ السفر/ انظرْ إلى سفرنا.»

تحاول البحثَ عن مكانٍ لتجلسَ فيه، لكنّك لا تجد ولو ثقبَ إبرة. تبقي حقيبتك على كتفيك تتقدّم حذرًا من فوق الحقائب، وبعض الجثث النائمة. بكاءُ أطفال، صراخُ رجل على زوجته، حلقاتُ النسوة وحديثهنّ المستمرّ، شبابٌ يناقشون قضايا جانبيّة، فيما يتفق الجميعُ أنّ هذه الصالةَ عتبةُ الدخول إلى سجنٍ آخر، أو بابُ طائرة ينتظر.

الساعة الآن الثالثة عصرًا تتحسّسُ روحَكَ بيدك. تتقدَّم بجوعك نحو كافتيريا المسافرين. تأخذ ما يسدُّ حاجتك من أكلٍ ودخان، وتبتعد عيناك تبحثان عن وجهٍ مألوف. بعد ذلك ستقتنع أنّ كلّ الوجوه مألوفةٌ لديك، ولن تحتاج سوى إلى دوران بسيط لتجد نفسك خرجتَ من دائرة ودخلتَ في دائرة أخرى، وتواصل الحديث!

كلّ لحظة يخرج شرطيٌّ ينادي أسماءَ المسافرين (المفْرَج عنهم) ودائمًا يسقط اسمُك. تقتنع أخيرًا أنّكَ من المغضوب عليهم، ولن تنفع معك تأشيرةُ الدخول إلى مصر، وسيتمّ ترحيلك!

تنتظر، مع آخرين، لحظةَ الترحيل. تنظر أكثر، تنتظر أعمق. سقفُ الصالة يزداد تشقّقًا روحك تتصلّب وتشعر بها جامدةً في منتصف حلقك تمامًا. تتنحّى جانبًا لأنّك تشعر بالعطش الشديد. يدك تأبى إلا أن تأخذ سيجارةً أخرى، وتنسى الماء.

تتقدّم من أناس آخرين. تستفسر عن أسمائهم قبل اسمك. يخبرونك أنّ موعد الترحيل تمام منتصف الليل ساعتك تشير إلى السابعة والربع مساءً. تفكّر في الساعات الخمس القادمة، وتستغرب أنّ الصالة ما تزال بكثافتها ذاتها.

هل سيُرحّل كلُّ هؤلاء؟ عددهم يتجاوز الألفيْ مسافر. أين سيوضعون؟ هل توجد حافلاتٌ لنقلهم؟ كيف سيرحّلون؟ تقرّر أخيرًا أن تطلب إذنًا من سيّدة بوضع حقيبتك قربها، حتى تكون لك أحقيّةُ دخول منطقتها والجلوس فوق الحقيبة، والنووووووووووووووووم

غزة، ٢٠١١

رسالة من مدينة العقلاء

□ **وسام عويضة**

صغيرتي الجميلة،

أعتقد أني بدوتُ أحمقَ في نظر جيراني الجالسين على الطاولة المقابلة في المقهى، وهم ثلاثةُ رجال يشربون القهوةَ ولا يجرؤون على رفع صوت مذياعٍ صغيرٍ ينساب منه صوتُ فيروز الدافئ، في العاشرةِ من صباح يومٍ غير عاديّ.

أبدو كنغمة نشاز في أوركسترا اللامبالاة التي تعزفها المدينةُ بحجارتها، ومبانيها، وسكّانها، وببحرها الذي أصبح شاهدًا على ما يحدث من غير أن يتفجّرَ مغرقًا كلَّ هذا العبث

أجد نفسي هذا الصباح مدفوعًا إلى هذه الصفحات البيضاء التي تواجهني منذ نحو ساعتين، استهلكتُ خلالهما نصف علبةٍ من السجائر، وثلاثة أكوابٍ من القهوة، فيما أنا أفكرّ في الكلمات التي يمكن أن أقولها لك، والأعذار التي سأخبرك إيّاها لأبرّر صمتي كلّ هذا الوقت

هل كنتُ سأخبركِ أنّي مشغولٌ عنكِ بمتابعة نشرات الأخبار في كلّ المحطّات، وبمتابعة أعداد الموتى الذين لا أسماء لهم، والقبورِ التي تزداد كلّ يوم حتى تُزاحمَ الأحياءَ والموتى على المساحات الصغيرة التي تبقّت لنا لنعيش عليها؟

ربما سأخبركِ أنّي كنتُ مشغولاً بشراء وتخزين بعض المعلّبات والدقيق، كي لا أعاني الجوعَ مرةً أخرى لثلاثة أيّام متواصلة، بعد أن نفذ الخبزُ والطعامُ في البيت خلال المعارك التي دارت الأسبوع الماضي للسيطرة على القارّة الثامنة في هذا الكوكب: قارّةٍ لا تتعدّى مساحتُها ثلاثمائة وستين كيلومترًا مربّعًا!

كيف كنتُ سأخبركِ أنّ الحياة التي كنا نَحْلم بها راحت تَصْغر حتى اختفى معناها من القاموس اليوميّ المستخدم، هذا القاموس الذي أصبحت الكلماتُ الدالّةُ على الموت فيه تتوالد كالطفيليّات، وأصبحتْ أسبابُ الموت مادّةً للتندّر؟

كيف أخبركِ أنّ الموتَ هنا أصبح أكثرَ البضائع رواجًا، ورفيقًا لنا حتى على أسرّتنا الصباحيّة التي فقدتْ دفئها؟

أتذكرين أيّام كانت هناك مساحاتٌ صغيرةٌ للحلم في حياتنا؟

كيف سأخبركِ أنني فقدتُ قدرتي على ممارسة الحلم وأصبحتُ كالآخرين في مدينتنا: ميتًا ينتظر مبرِّرًا ليتنازل عن اسمه ويحملَ رقمًا في سلسلة الأرقام الإحصائيّة في سجلات الميتين رسميًا؟

كيف سأخبركِ أني لا أملكُ ما أقوله لك من دون أن أخجل؟

هذا الصباح كان التجوّلُ في شوارع المدينة ممكنًا بعد أسبوع من الفوضى والقلق والموت. للمتُ ما تبقّى من جسدي، ونزلتُ إلى الشارع أتسوّل حياةً عاديّةً أصبحتْ بعيدةَ المنال. بدت الشوارعُ غريبة لا روح فيها، والمارّةُ يعْبرون الطريقَ كالآلات المبرمجة على أداء أدوارها: غائبين في عوالمهم الداخليّة، تطلّ من عيونهم نظراتٌ لا تشي بشيء.

كان لا بدّ أن أبدو في عيون جيراني على الطاولة المقابلة رجلاً نصفَ مجنون، مثلهم تمامًا، في مدينة العقلاء هذه، مدينةٍ تحترف تقديمَ طبق الموت مجّانًا، وعلى قارعة الطريق.

صغيرتي الجميلة، ليس الموت سيّئًا إلى هذا الحدّ: فها أنا ذا أكتب لك، وها أنت تقرأين!

غزة، ٢٠١١

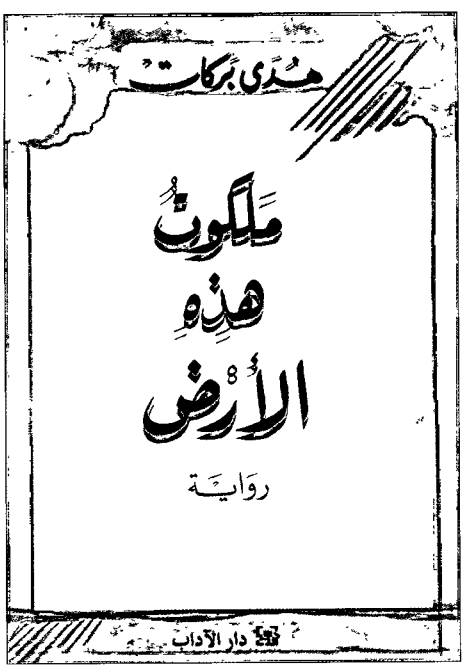

بين الخرافة السحريّة والوقائع المدوّنة بخفّة الحكاية الشعبيّة لتاريخ لبنان، تعيش شخصيّات عائلة «المزوّقيّة» في المرتفعات الشماليّة حيث يتحصّن هؤلاء الموارنة من أعدائهم الكثيرين، وحيث تمرّ الحروب على مدى قرن.

يموت المزوّق الأب برداً على قمم ضهر الجرد الثلجيّة، فيسر ابنه طنّوس بالحكاية، ثم تلتحق به أخته سلمى. بين أديرة الوادي المقدّس وسِيَر البطولات المحلّيّة الآسرة، يختلط حبّ الموطن بغياب الوطن.

في ملكوت هذه الأرض، نقرأ عن أفراح هؤلاء الناس البسيطة وعن شظف عيشهم، عن لهوهم السعيد وأوهامهم الكثيرة، وعن حكايات الأقدار الآيلة إلى الأسى.